

استقرار الأنظمة اللغوية للعربية الفصحى
سبيل إلى الوحدة الثقافية العربية بل الإسلامية

د. أحمد إبراهيم هندي(*)

الوحدة والتكتل مطلب عالمي في أيامنا هذه :

إن المتأمل فيما يجري اليوم على الساحة العالمية في كوكبنا ، يدرك بوضوح وجلاء ميل أهل الأرض أجمعين إلى التكتل والتجمع في تكتلات وتجمعات تمثّل دروعاً واقية لأصحابها ، وقوة دافعة لهم للمحافظة على هوياتهم وأنفسهم وبلادهم ، بل وإلى السيطرة على الآخرين ، رغم عدم اكتمال مقومات هذا التكتل والتجمع .



(*) الأستاذ المساعد بقسم اللغة العربية بكلية الآداب ـ جامعة عين شمس .

فليس ببعيد عنَّا ما نراه في أيامنا هذه من صيرورة دول أوروبا إلى تكتل واحد ، تحت قيادة واحدة ، تجمعها راية واحدة ، عملتها واحدة ، تحولَّت حدود دولها إلى حدود مفتوحة لدول الاتحاد الأوروبي ، الذي بدأ بإنشاء سوق أوروبية مشتركة ، ليتحوّل الأمر في نهاية المطاف إلى صيرورة أوروبا بلداً واحداً أو قُلْ دولة واحدة على اختلاف لغات دولها وعاداتهم وتقاليدهم وتاريخهم .

بل إنَّ الأمر ليتخطَّى ذلك في محاولة من الولايات المتحدة الأمريكية التي تسعى إلى ضم دول العالم إليها والسيطرة عليها بفرض النموذج الأمريكي عليها ، لتكوِّن بذلك أكبر تجمع بشري يسعى في ركابها ، تهيمن عليه وتسيطر عليه ، وإن تسمَّى بأسماء تُخالِفُ حقيقة ما يرمي إليه الأمريكيون .

ومن قبلُ كانت هناك محاولات في العالم لجمع كُتَل بشرية تحت نظام يحاول أصحابُه فرض فكرهم ونظامهم على الآخرين كما حدث في دولَ الحزام الشيوعي ، ودول النظام الرأسمالي ودول عدم الانحياز .

والمنطقة العربية اليوم - في أمسِّ الحاجة إلى تجمع يضمها ووحدة تجمعها . ففي ظل الأحداث الجارية في أيامنا هذه تحت سمع وبصر الجميع بما تفرضه هجمة العولمة الأمريكية والأوروبية وبما ترمي إليه من تعبيد دول العالم الثالث أو قُل العالم النامي ، وخاصة هذه المنطقة لتكون سوقاً استهلاكية لمنتجاتها ومستودع المواد الخام لمصانعها ، ومناطق سلطة ونفوذ خضوعُها وإذعانُها لقادة هجمة العولمة من الأمريكان والأوروبيين .

في ظل هذه الظروف يتوجَّب على هذه المنطقة العربية بل والإسلامية أن تعي أن الوحدة والتجمع والتكتل هو سبيلها إلى الحفاظ على هويتها واستقلالها في قرارها وشئونها . إنها في حاجة إلى تذكُّر نداء رب الأرض والسماء من أكثر من ألف وأربعمائة عام إذ ينادي ربُّنا فيقول : ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا...﴿١٠٣﴾﴾ (آل عمران : من الآية١٠٣)

ويقول : ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾ (الأنبياء : ٩٢)

ويقول : ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾ (المؤمنون : ٥٢) .

إن الاستجابة لهذا النداء الذي جاء من الله العليم الخبير اللطيف الذي يعلم خائنة

الأعين وما تخفي الصدور ، هي خير عاصم لهذه الأمة وخير حافظ لهويتها ، وخير معين لها على وحدة ثقافية عربية بل وإسلامية تضمن لها استمرار الحفاظ على خصوصيتها وخلاص هويتها من الذوبان والاندماج في هويات الآخرين ، المغايرين لنا في منطلقاتهم وثوابتهم وقيمهم وأخلاقياتهم وسلوكياتهم .

إن بلاد العرب لها مواريث من دينها تدعوها إلى الوحدة ولو في أدنى درجاتها وذلك وفقًا للملابسات التاريخية الممكنة. فالوحدة باب من أبواب التعاون على البر والتقوى والعمل الصالح ، وقد أُمرنا به ، فقال تعالى : ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ ﴿٢﴾﴾ (المائدة: من الآية٢) . بل إن الرسول محمداً ـ ﷺ ـ يُشبهُ المؤمنين في توادهم وتراحمهم بالجسد الواحد فيقول : (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى) .

(صحيح مسلم بشرح النووي ١/ ١٣٩ـ١٤٠)

ولا يكون ذلك إلا بالوحدة التامة الحقيقية التي تجمع هؤلاء جميعاً بصدق فيما بينهم .

بل إن الله تعالى يُذكِّر البشرية كلها بوحدة أصلها ـ وهي وحدة واجبة عليها بوحدة خلقها وارتدادها في أصل خلْقها إلى آدم وحوّاء ويذكرها بأن ميزان التفاضل لا يكون بلون أو جنس وإنما بالتقوى والعمل الصالح . قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ (الحجرات: ١٣)، وهو ميزان مكفول لكل أحد من البشر ، إذ به تتحقق العدالة التامة والمساواة الكاملة بين أفراد البشر أجمعين . وإلى مثل هذه الوحدة الإنسانية يلفتنا رسول الله ﷺ بقوله : (كلُّكم لآدم وآدم من تراب . . . .) .

(مسند الربيع بن حبيب ١/ ١٧٠)

عوامل الوحدة العربية الشاملة :

إن المتأمل لواقع هذه المنطقة العربية يجدُ أنَّها تتمتع بعوامل ومقومات قد جمعت وألَّفتْ بينها من ذلك :

موقعها الجغرافي المتميز الذي يربط بين الشرق والغرب ، والشمال والجنوب ، في سعة من المساحة تتيح لأهل هذه المنطقة ضرباً من التكامل في كل شيء ، في الزراعة والصناعة والتجارة والتعليم ، مما يجعل ثمرة هذه الوحدة ثمرة مباشرة بين أهل هذه المنطقة .

ومن ذلك أنها ذات عادات وتقاليد تقاربت فيما بينها حتى إنك لا تشعر بالغربة عند انتقالك في ربوعها من شرق إلى غرب ومن قطر إلى قطر ومن دولة إلى دولة ، لتقارب أخلاق الناس وتقاليدهم وعاداتهم وأعرافهم .

ومن ذلك أن الموروثات الثقافية والدينية والتاريخية لهذه البلاد العربية تكاد تكون واحدة ، فهيأتها لوحدة فاعلة فيما بينها . وهو عامل في غاية الأهمية للوحدة المرجوة ، فمنشأ الأخلاق والثقافة والسلوك والدين يعود إلى ارتباط أهل هذه المنطقة بالله تعالى ، وأنها مهبط رسالات السماء ، التي كان الإسلام خاتمها فطبعها بطابع واحد ، ألّف بين القلوب وإن تباعد بها المكان . وبهذا امتنَّ الله على رسوله الكريم إذ خاطبه بقوله : ﴿...هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٦٣﴾﴾ (الأنفال : من الآية ٦٢ ، ٦٣) وقوله : ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ (آل عمران : ١٠٣) .

انظر إلى مظهر رائع من مظاهر الوحدة العامة بين العرب والمسلمين وعامل من عواملها بقي حياً نابضاً بالحياة إلى هذه الساعة ألا وهو الحجُّ (انظر اتجاهات التفسير ص١٩٨) فهو مؤتمر عام للوحدة بين العرب والمسلمين بكل أشكالها يستوي في ذلك أن تكون وحدة ثقافية أو دينية أو تمهيداً لوحدة سياسية تجمع بين شعوب أمة الإسلام .

ولعل مرور بلاد العرب كلها بتاريخ تشابهت معالمهُ ـ إن لم تكن قد تطابقت ـ مما جعلها في السَّراء والضراء على حد شبه سواء ، فشكَّل بذلك وحدة معاناتها كما شكل كذلك وحدة أملها ورجائها . فهي بلاد ذات ميراث تاريخي واحد ، قد شكَّل أملها اليوم ، ووحد جنبات هذا الأمل بين ربوعها المتباعدة ، في وجود كريم مستقل بمزيد من الخير للجميع ، يطمع في أن تسود العدالة والحرية بقاع الكرة الأرضية كلها ، وأن تتوحد موازين التعامل بين هذه البقاع على أساس العدل التام والمساواة لا على سياسة المحاباة لبعضٍ ، والكيل بموازين مختلفة لهوى في النفس أو في الفكر أو لرغبة في التسلط .



ولقد أدرك علماء العرب والمسلمين قيمة هذه العوامل والمقومات في إمكان قيام وحدة واعدة تجمع شعوب هذه المنطقة بل والعالم الإسلامي كله ، فهي عوامل مرتبطة بثوابت يحافظ عليها العرب والمسلمون ومن هنا تمثّلت قيمتها ورجحتْ كفتُّها فالشيخ طنطاوي جوهري يرى أن العرب قد استجمعوا مقومات وحدة تضمهم في دولة متحدة تكون مقدمة لاتحاد المسلمين كلهم فقد تقاربت ديارهم واتحدت لغتهم ودينهم وتجانست أصولهم ، وهي أسباب تؤدي حتماً إلى الاجتماع والتآلف . *(انظر اتجاهات التفسير ص١٩٨ ، ٢٠٥)*

ومن أبرز عوامل الوحدة العربية أن لغة الكتابة لهذه المنطقة لغة واحدة تستطيع أن تتفاهم بها فيما بينهم . فأنت عندما تنتقل من المشرق إلى المغرب ، مصطنعاً العربية الفصحى ، فإنك تتفاهم بلا مشقة أو عناء مع مَنْ تلقاهم في أي مصر أو إقليم تكون فيه . فإذا ما قارنت ذلك الوضع بحال مواطن من دول أوروبا - على صغرِ مساحتها بالمقارنة إلى مساحة بلاد العرب - فإنه عندما ينتقل من شرق أوروبا إلى غربها أو من شمالها إلى جنوبها ، فإنه بحاجة ماسة إلى لغة أخرى غير لغته - أو لغات - ليصح له التفاهم مع أهل هذه البلاد التي يدخلها في رحلته تلك ، أو قُل لا بد له من لغة وسيطة يلجأ إليها ، قد قُدِّر لها الشيوع والذيوعُ والانتشار تكون بينه وبين سكان البلاد الأخرى . أما في ربوع بلاد العرب فإن لغتك الفصحى التي تراعيها في الكتابة عندما تكتب أو تتحدث ، فإنها كافية ليتمَّ لك التواصلُ والتفاهم حيثما سرت في بلادهم .

لكن المتأمِّل في الواقع اللغوي لبلاد العرب ، لا بُدَّ له منْ أن يُفَرِّق بين مستويين لغويين، اللغة العربية التي يُكتب بها ، أعني العربية الفصحى بوصَفها لغة الكتابة وتسجيل الأدب والعلم وسائر المعارف الإنسانية ، ولغة الحديث بوصفها مستوى آخر من مستويات اللغة به يتحادث الناس ويتكلمون .

فأمَّا على المستوى اللهجي فإن تباين هذه اللهجات وتغايرها في البلد الواحد ، فضلاً عن تغايرها واختلافها في سائر الأقطار العربية - يُسْتَبْعدُ معه انتقاء لهجة يتم على أساسها وحدة ثقافية عربية . ووجود هذا الواقع اللهجي أمرٌ تُقرِّرُه الأعرافُ ولا تنكره ، فإنَّ اللغويين يلاحظون أن اللغة الواحدة تتفرع إلى لهجات بل ولغات بسبب انتشار اللغة في مناطق مختلفة واسعة تستخدم فيها لدى جماعات كثيرة العدد وطوائف مختلفة من الناس .

(انظر : دراسات في فقه اللغة د. صبحي الصالح ص٣٥٩ واللغة المجتمع د. وافي ص١٢٢)



أمـا الفصحى بوصفها لغة الكتابة فهي الصورة المرجوة لأن يستمر الرباط اللغوي قائماً بين العرب على أساسها داعماً لوحدة ثقافية عربية تجمع العرب من المحيط إلى الخليج .

وقـد عبَّـر أ . د . صبحي الـصالح أصـدق تعـبير عن القضية التي نحن بصددها ، بين الفـصحى والعامـية كدعامة من دعائم الوحدة الثقافية فقال : " إننا لن نجد مسوغاً للدعوة إلى العامية ، لأن عدواها لا تسْري إلا حيثما يكونُ الجهل والمكابرة والعناد .

" ذلـك بـأن الأقطـار الـناطقة بالضاد مترامية الأطراف ، تمتدُّ من المحيط إلى المحيط . وإنـك لتجد حتى في القطر الواحد من تعدُّد اللهجات ما لا ينقضي له عجبُك ، ففي لبنان ـ علـى ضـيق رقعـته بالنـسبة إلى مـصر مثلاً – تفاوت ملحوظ بين لهجات الجنوب والشمال والبقاع وكسروان ، بل الأحياء في كل مدينة من مدن لبنان تتفاوت لهجاتُها تفاوتاً عجيباً ، فلهجـة المينـاء في طـرابلس تخـتلف عـن كـلٍ مـنْ لهجـات سـاحة التل وباب التبانة وبوابة الحدادين .

" ولـئن بلـغ الـتفاوت بـين الأحـياء في كـل مدينة ، وبين الأقاليم في كل قطر ، وبين الأقطـار المتباعد بعضُها عن بعض ، هذا الحدَّ الواسع الهائل ، فما هي اللهجة العامية التي يسعنا اختيارُها من بين هذا الركام المختلط العجيب ؟ " .

(دراسات في فقه اللغة د . صبحي الصالح ص٣٥٩)

ولقد أحسن الدكتور صبحي الصالح إذ التقط الخيط من الدكتور طه حسين وهو يقرع ناقـوس الخطـر وينـبِّه علـى أن العـربية الفـصحى رباط لغوي قائم بين الأقطار العربية وأما الجري وراء الدعوة إلى العاميات فإنه يؤدي إلى تمزيق هذه الوحدة اللغوية على مرور الأيام، إذ تتباعد كل لهجة حتى تصير مستقلة فيحتاج العرب في كل قطر إلى ترجمة لهجات الأقطار الأخـرى إلى لهجـتهم . قـال عـن ذلـك الدكتور طه حسين : " أحبُّ أن ألفت نظر أدبائنا الـذين يطالـبون بالالتجاء إلى اللهجات العامية إلى شيء خطير ، ما أرى أنهم قد فكروا فيه فأحـسنوا الـتفكير . هـو أن العـالم العربي الآن ، وكثيراً من أهل العالم الشرقي كله يفهم العـربية الفـصحى ويـتخذها وسـيلة للتعـبير عن ذات نفسه وللتواصل الصحيح القويّ بين أقطاره المتباعدة ، فلنحذر أن نشجع الكتابة باللهجات العامية ، فيمعن كل قطر في لهجته ، وتُمعنُ هـذه اللـهجات في التباعد والتدابر ، ويأتي يومٌ يحتاج فيه المصري إلى أن يترجم إلى لهجـته كـتبَ السوريين واللبنانيين والعراقيين ، ويحتاج أهل سورية ولبنان والعراق إلى مثل مـا يحتاج إليه المصريون من ترجمة الكتب المصرية إلى لهجاتهم ، كما يترجم الفرنسيون عن الإيطاليين والإسبانيين ، وكما يترجم هؤلاء عن الفرنسيين " .

(دراسات في فقه اللغة د . صبحي الصالح ص٣٦٠)



وإذ ثبت ذلك ووصل إلى درجة اليقين ، وتبيَّن لنا أن اللغة العربية الفصحى التي يتم التفاهم بها الآن هي خير رباط لغوي يجتمع عليه العرب من المحيط إلى الخليج ، وهو واقع ملموس لا يحتاج إلى برهان أو دليل . فهل هناك ما يميز هذه اللغة في ذاتها ويرشِّحُها لأن تكون بذلك من أقوى عوامل الوحدة الثقافية بين العرب ؟ ذلك ما نجد جوابه فيما يلي :

استقرار الأنظمة اللغوية للعربية الفصحى سبيل إلى الوحدة الثقافية العربية :

إن المتأمل للغة العربية الفصحى على تاريخها الطويل الذي يزيد على ألف وستمائة عام على الأقل منها أكثر من ألف وأربعمائة من بعثة النبي محمد ـ ﷺ ـ يجد أنها قد تمتعت باستقرار أنظمتها اللغوية مما يرشحُها لأنْ تكون عاملاً مهماً من عوامل الوحدة الثقافية بين البلاد العربية .

إننا نشعر بخطورة وعظم هذا العامل بوصفه ركيزة كبرى من ركائز الوحدة بين البلاد العربية ، خاصة أن العربية الفصحى قد ارتبطت بنص مقدَّس لا غناء للمسلمين عنه وهو القرآن الكريم ، مما شجَّع على استمرارها لغة حيَّة بين العرب على هذا التاريخ الطويل ، فضلاً عن تشجيع أهل البلاد التي فتحها المسلمون على تعلُّم العربية واصطناعها لحاجتهم إليها كلغة للقرآن والحديث وعلوم الدين والأدب . فـ " القرآن دستور الأمة الإسلامية ، ففيه دليل العبادات والمعاملات وآداب السلوك وعلاقات الأفراد والجماعات للأمة الإسلامية ، في ماضيها وحاضرها ومستقبلها . . . وقد وعد الله تعالى بحفظه إذ يقول : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾ (الحجر : ٩) (أصول التفكير اللغوي عند العرب ص٢١). وهل يُحفَظُ الذكر إلا بحفظ لغته التي تمثِّل الوعاء الذي ينقله ؟ فاستعمل الله لتحقيق وعده علماء العربية وسخَّرهم لأن يكونوا ستار قَدَره في ذلك الحفظ ، تلك هي " العربية الفصحى ، التي استمرت حية أربعة عشر قرناً والتي ستستمر في حياتها إلى ما شاء الله تستمدُّ من ارتباطها بالقرآن الكريم عنصر الحياة ، وهذه القضية كانت واضحة في أذهان اللغويين العرب في الماضي ، فها هو أبو حاتم الرازي المتوفى سنة ٣٢٢هـ يقول : " ولولا ما بالناس من الحاجة إلى معرفة لغة العرب ، والاستعانة بالشعر على العلم بغريب القرآن وأحاديث رسول الله ﷺ والصحابة التابعين والأئمة الماضين ، لبطل الشعر وانقرض ذكر الشعراء ولعفَّى الدهرُ على آثارهم ونَسِيَ الناسُ أيَّامهم " .

(دراسات وتعليقات في اللغة ص٢١٨ ، ٢١٩)



بل إن القرآن الكريم كان وراء النهضة العلمية التي أنجزتها الحضارة الإسلامية في كل علم وفنّ ، ابتداء من تفسير غريب القرآن الكريم على النحو الذي سُجّل عن عبد الله بن عبَّاس في سؤالات نافع بن الأزرق له ، فقد كان الناس يسألونه عن ألفاظ دقَّ عليهم فهمها فيفسرها لهم مستشهداً عليها بالشعر ، مما أدى إلى الاهتمام بالشعر والأدب في خدمة القرآن الكريم . كذلك نشأت علوم أخرى كثيرة تأثرت نشأتها بالقرآن والحديث كالنحو والصرف والبلاغة ، والجغرافيا والتاريخ والطب والفلك والرياضيات ، فكان القرآن بحق محور هذه الدراسات ، وهو ما لاحظه المستشرق الألماني نولدكه إذ رأى " أنَّ العربية لم تَصر لغة عالمية حقاً إلا بسبب القرآن والإسلام ، إذ تحت قيادة قريش فتح البدوُ سكانُ الصَحراء ، نصف العالم لهم وللإيمان ، وبهذا صارت اللغة العربية لغة مقدسة كذلك " (اللغات السامية ص٧٩ نقلاً عن كتاب فصول في فقه العربية ص١٠٩) " ولهذا أجهد العلماء أنفسهم في دراستها واسْتكناه أسرارها ليقفوا على مواطن الإعجاز في كتاب الله العزيز " . *(فُصُول في فقه العربية ص١٠٩)*

إن نولدكه في النص السابق يلحظ أن العربية قد صارت لغة عالمية ، فهو يدرك أن الذين يتحولون إلى الإسلام يطلبون العربية تعلماً وإجادة ، مما وسَّع نطاق استعمالها ونشرها في ربوعٍ لم تكن فيها . ورفع لها رايات في البلاد التي فتحها المسلمون . ونظراً لأن العالم كله يُقر بتلك الحقيقة فقد اعتُرف باللغة العربية لغة عالمية فصارت بذلك سادس لغة عالمية على مَستوى العالم ، في هيئة الأمم المتحدة وسائر المحافل الدولية . ولقد كان حصولها على وصف " العالمية " هذا عن جدارة ، فعالميتها تتميز بأنها مؤسسة على جانب حضاري وجانب ديني ، وأنها غير مرتبطة بالقوة العسكرية مما يضمن لعالميتها الاستمرار والدوام . *(انظر : ملخص بحث : الحصانة الذاتية للعربية ضد أخطار العولمة ، د. محمد أحمد حماد)*

ومن ذلك كله نلحظ دور اللغة العربية في الوحدة الثقافية والوحدة القومية والوحدة الإسلامية ، كلغة للعرب والمسلمين ودور الإسلام في الحفاظ عليها حيث أمدَّها بثقافة عربية شاملة تتمثَّل في التاريخ الإسلامي والفقه وسائر علوم الدين ، ولولا الإسلام لأصبحت اللغة العربية لغة تاريخية كالقبطية واللاتينية والهيروغليفية " .

(تجهيز اللغة العربية للتصدي لطوفان المعلومات والعولمة ، د. سلوى حماده ص٥٥)

وإذا كنَّا نرى أنَّ العربية بهذا تصلح لأن تكون عاملاً مهماً من عوامل الوحدة الثقافية العربية ، فإن هذا ليس مجاملة لها لكونها لغتنا التي نتحدثها ولكن لأسباب تحققت لها منها :

١. استقرار أنظمتها اللغوية من الناحية الصوتية والصرفية والنحوية ، وإلى حدٍ كبير من الناحية الدلالية .

٢. أنها تملك من وسائل تجديد نفسها ما يُرَشِّحُها لأن تكون من أهم عوامل الوحدة الثقافية العربية ، فضلاً عن أن تلك الوسائل تمكِّنها من أن تكون لغة عصرية تفي بمتطلبات العصر وتستوعب الجديد من مستحدثاته ، وذلك عن طريق : الاشتقاق والنحت والتعريب وتدخيل الألفاظ وقدرتها على استيعاب ما في اللغات الأخرى عن طريق الترجمة ، وما تمثَّل فيها من الجذور اللغوية المهملة التي تمثِّل رصيداً حياً هائلاً ، يمكن تعليق المعاني الجديدة عليه ، مما يفتح الباب والآفاق أمام العربية لاستيعاب ما يستجدُّ الآن وفي المستقبل ليجد في انتظاره هذا الكمَّ الهائل من تلك الجذور ، جاهزة للاستعمال .

٣. أنها تؤدي الوظائف التي تؤديها أية لغة في حياة أي مجتمع يتكلم بها .

٤. أنَّ العربية قد سُجِّل بها كمٌّ معرفي وعلمي وأدبي هائل ، يفوق كل تصور . فيكفي أنَّ الباحث في تطور العلوم وتتبع حلقات ذلك التطور ، لا يمكنه – إذا كان منصفاً مدققاً – أنْ يُغْفل النتاج الذي جادت به قرائح أبناء هذه الأمة على مدى زمني طويل ، مثَّل الأساس الذي قامت عليه النهضة الغربية المعاصرة . ولا يمكن تجاهل نتاج الحضارة العربية الإسلامية في شتَّى المعارف والفنون على هذا المدى الزمني المتطاول ، وقد كانت اللغة العربية هي اللغة التي سُجِّل بها هذا النتاج .

وإذا كُنَّا نرى في دنيا العلم تنقيباً عن لغات قد عفَّى عليها الزمن وانقرضت وتحولت أثراً بعد عين ، لأنها كانت في يوم من الأيام لغة حضارة قد انقرضت ، كالهيروغليفية واللاتينية فإن العربية الفصحى أولى بهذا الجهد وبهذا الإحياء وهي لا تزال حية نابضة لغة للكتابة وللأدب وللدين ولسائر المعارف الإنسانية فضلاً عن كونها ناقلاً لحلقة من حلقات تطور المعارف والعلوم الإنسانية بصيرورتها لغة العلم في ظل الحضارة الإسلامية لقرون عديدة من الزمان ، ومثَّلتْ معبراً حضارياً لتلك العلوم إلى أوروبا في بداية نهضتها الحديثة .

٥. طلب عدد كبير من سكان الكرة الأرضية من غير العرب للعربية تعلماً وإجادة ، يُرَشِّحُها لأن تكون لغة مستمرة ممتدة ، ودعامة وحدة ثقافية بين الناطقين بها . وما



ذلك إلا لارتباطها ـ كما سبق القول ـ بكتاب الله وسنة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم وما دار حول هذين الأصلين من علوم تنقل منهج الله إلى البشرية على يد خاتم الأنبياء والرسل ، وهي لغة وُعدتْ بأن يحفظ اللهُ كتاب دينها قال تعالى : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾ (الحجر : ٩) ولا يُحْفَظ الذكر إلا بحفظ لغته كما سبقت الإشارة إلى ذلك ، فإن قام بذلك العرب كانوا أهلاً وستاراً لقَدَر الله ذاك ، و إلا استبدل الله غيرهم ممن يقوم به طبقاً لسُنَّة الاستبدال التي أشار إليها قول الحق ﷻ : ﴿. . . وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ۝٣٨﴾ (محمد : من الآية٣٨) وسننُ الله تمضي على البشر ، كما تمضي قوانينه على المادة قال تعالى : ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۝٦٢﴾ (الأحزاب : ٦٢) وقال : ﴿...فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ۝٤٣﴾ (فاطر : من الآية٤٣) .

٦ . أن العربية قاومت على مدى تاريخها الطويل المشار إليه آنفاً وأثبتتْ وجودها لغةً للأدب والفكر والعلم والدين . وقد جدَّدتْ هذا في أيامنا تلك ، فأثبتتْ قدرتها على استيعاب العلوم الحديثة . يشهد لذلك ما قام به بعض العلماء العرب من اتخاذها لغة للعلوم الكونية ، فتمَّ تدريس كثير منها في جامعات سوريا والعراق ومصر باللغة العربية ، وقد ظهرت كثير من الجمعيات العلمية تنادي بتعريب العلوم واتخاذ العربية لغة لها ، كجمعية تعريب العلوم التي رأسها لفترة طويلة أ . د . محمد يونس الحملاوي وجمعية المهندسين العرب ومؤتمرها الأخير الذي ينادي بالتدريب بالعربية على أعمال الحاسب الآلي واتخاذ اللغة العربية لغة حاسوبية .

(انظر : اللغة العربية بين الواقع المرصود والأمل المنشود ص ٤١)

هذا على سبيل الإجمال للعوامل التي تُرَشِّح العربية لأن تكون عاملاً من عوامل الوحدة الثقافية العربية بل والإسلامية ، تلك الوحدة المرتقبة التي تمثّل عاصماً يحمي خُصوصيتنا وهويتنا من الذوبان في هويات الآخرين .

لكن بعض هذه العوامل المذكورة في حاجة إلى شيء من التفصيل والتوضيح ، وسأعرض للعوامل الثلاثة الأولى من تلك العوامل السابق ذكرها حتى نُوَفِّي للعربية حقها في بيان تلك الأسباب المرشِّحة لها لأن نكون أهم عامل من عوامل الوحدة الثقافية بين العرب .

أولا : استقرار الأنظمة اللغوية للعربية الفصحى يُرشِّحُها لأن تكون عاملاً من عوامل الوحدة الثقافية بين العرب ، بل والمسلمين : -

لقد اهتمَّ العرب بالعربية منذ اللحظة الأولى لظهور اللحن فيها ، بوصفها الوعاء الذي يحملُ إلينا منهج الله مُمثَّلا في القرآن الكريم وسنة رسوله الأمين - ﷺ - وما دار حول هذين الأصليين من علوم . لقد بدا ذلك الاهتمام في لمحات رواها لنا الأئمة تبرز لنا بداية هذا الاهتمام بالعربية .

فقد رُوي أن أول لحن وقع في العراق قولهم : هذه عصاتي ، والصواب : عصاي .
(انظر : تقويم اللسان ص١٤١ وتصحيح التصحيف ص٣٨٢)

كذلك ما رووه من قراءة أعرابي لقوله تعالى : ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ... ﴿٣﴾﴾ (التوبة : من الآية٣) قرأها بعطف " رسوله " على المشركين ، والصواب أنها بالرفع ، أي ورسولُه بريء كذلك من المشركين .

لَمَّا وقع مثل ذلك هبَّ العلماء يدرسون العربية بغية الحفاظ عليها بوصفها الوعاء الناقل لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ والعلوم التي دارت حولهما ، فدرس هؤلاء العلماء اللغة العربية في جوانبها المختلفة ، درسوها على مستوى الصوت فكانت جهودهم في علم أصوات العربية . انظر إلى ما صنعه ابن جني مثلاً في كتابه : سر صناعة الإعراب ، وهو في حقيقته كتاب في علم أصوات العربية ، وإنْ ضمَّ إلى جانب ذلك جوانب علمية أخرى . ولقد كانت مؤلَّفات النحو ومطوَّلاته تُولي هذا الجانب بالدراسة والعناية فتفرد له جزءاً منها . *(انظر إلى ما صنعه سيبويه في كتابه : الكتاب)*

ولم يكن النحاة وحدهم في هذا الميدان ، فقد خصَّ القُرَّاء أصوات العربية بالدراسة المدقِّقة الواعية التي وصلوا فيها إلى نتائج سبقوا بها عصرهم بمئات السنين ، انظر إلى جهودهم في دراسة الحركات في صورة ما يُعْرَفُ بالمدِّ الفرعي وكيف أنهم أوجدوا لأنفسهم قياساً زمنياً يقيسون به طول الحركة فكانوا أكثر توفيقاً وأدقَّ نتائج مما توصَّل إليه اللغويون .
(انظر : الفرق بالحركة بين المعاني المختلفة ص٢٧٦ - ٢٨٠)

كلُّ ذلك أدَّى إلى استقرار النظام الصوتي للعربية الفصحى إلى حدٍّ كبير ، ويرجع الفضل في ذلك إلى ارتباط هذه اللغة بكتاب الله الخالد الذي حفَّز الهمم وأيقظ العقول للحفاظ على لغة هذا الكتاب .

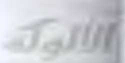
وكما درس علماء العربية اللغة في جانبها الصوتي درسوها كذلك على مستوى الكلمة فكانت جهودُهم في علم الصرف ، ذلك العلم الذي نشأ أولاً في كنف علم النحو ثم ما لبث أن استقل وتحوَّل إلى علم له مادته المستقلة وموضوعاتُه المحدَّدة .

مصداق ذلك يتضح من النظر فيما خلَّفه الأئمة كسيبويه في كتابه والمبرد في مقتضبه وابن السراج في أصوله ، وتصريف المازني وشرحه المسمى بالمنصف لابن جني وشافية ابن الحاجب وشرحها لرضي الدين الاستراباذي وألفية ابن مالك وشروحها المختلفة والتصريف العزي لابن جني وشرحه لابن يعيش ودقائق التصريف لابن عصفور الاشبيلي إلى أن نصل إلى مؤلفات المحدثين في هذا الباب يقف على رأسها كتاب شذا العرف في فن الصرف للشيخ أحمد الحملاوي .

كما درسوا اللغة على مستوى التركيب فكانت جهودُهم في علم النحو ، وكان كتاب سيبويه أوَّل ما وصل إلينا من تلك الجهود التي ضاع كثير من بداياتها . وما زال التأليف في علم النحو ينمو ويتطوَّر فتارة تُؤلَّفُ المختصرات ويتوالى شرحُها كالمفصل للزمخشري وشرحه لابن يعيش وكالكافية في علم النحو لابن الحاجب وشرحها لرضي الدين الاستراباذي وتسهيل الفوائد لابن مالك وشروحه المختلفة وكانت الحواشي على الشروح جهداً من تلك الجهود الموجهة إلى علم تركيب العربية . كحاشية الصبان على الأشموني وحاشية الشيخ الخضري على شرح ابن عقيل . . . . . الخ .

ولقد كان للعرب جهود في التطبيق على نصوص العربية من الناحية التركيبية حَظِي القرآن الكريم بكوكبة منها : معاني القرآن للفراء وإعراب القرآن الكريم المنسوب إلى الزجاج ، والتبيان في إعراب القرآن لأبي البقاء العكبري والبيان في غريب إعراب القرآن لابن الأنباري ومشكل إعراب القرآن لمكي بن أبي طالب القيسي . والبحر المحيط لأبي حيان الأندلسي والفتوحات الإلهية الشهير بحاشية الجمل على الجلالين والدر المصون للسمين الحلبي .

كذلك كانت كتب تخريج القراءات القرآنية ضرباً من ضروب التأليف اللغوي الذي توجهت العناية فيه إلى الناحية التركيبية كذلك كالحجة لأبي علي الفارسي والحجة في القراءات السبع للإمام ابن خالويه والكشف عن وجوه القراءات السبع لمكي بن أبي طالب القيسي وحجة القراءات للإمام أبي زرعة عبد الرحمن ابن زنجلة والمحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها لأبي الفتح عثمان بن جني .



ولقد حظي الحديث الشريف كذلك بشيء من هذا الجهد كإعراب الحديث النبوي لأبي البقاء العكبري وشواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح لابن مالك .

كما توجَّه مثل هذا الجهد إلى دواوين الشعراء من ذلك على سبيل المثال التبيان في شرح الديوان ، وهو شرح لديوان المتنبي وضعه أبو البقاء العكبري .

ولقد خرجت العربية من كل ذلك بثروة هائلة كان لها أكبر الأثر في استقرار نظامها الصرفي والنحوي استقراراً جعلها إلى الآن لغة للكتابة والتواصل بين بلاد العرب ، يتيح لك وأنت ابن هذا العصر أن تقرأ وتفهم نصوص العربية التي مضى عليها أكثر من ألف وأربعمائة عام . وهو حظ لم يكن ليتوفر إلا للغة ارتبطت بكتاب الله وسنّة رسوله ﷺ هذان هما الأصلان اللذان تلتقي حولهما القلوب وتتوق إليهما النفوس .

وكما درس علماء العربية اللغة في صوتها وصرفها وتركيبها درسوها كذلك على المستوى الدلالي ، فكانت جهودهم في وضع المعاجم المختلفة . تلك المعاجم التي بدأت بوضع الرسائل اللغوية المفردة ثم تطورت إلى وضع المعاجم المختلفة من حيث المنهج المتبع فَي العرض لمفردات اللغة .

فمها معاجم عرضت للمفردات بحسب المعاني ، وتُعْرَفُ بمعاجم الترتيب الموضوعي كالغريب المصنف لأبي عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة ٢٢٤هـ ، والألفاظ الكتابية لعبد الرحمن بن عيسى الهمذاني وجواهر الألفاظ لقدامة بن جعفر ومتخيَّر الألفاظ لأحمد بن فارس وفقه اللغة وسر العربية للثعالبي والمخصص في اللغة لابن سيدة الأندلسي المتوفى عام ٤٥٨هـ . *(انظر : فصول في فقه العربية ص٢٥٩-٢٦٥)*

ولقد تباينت طريقة المؤلفين للمعاجم في العربية سوى ذلك الصنف السابق ، فمنها ما اعتمد النظام الصوتي مدخلاً له إلى ترتيب مفردات العربية كالعين للخليل بن أحمد ، وقد أثَّر ترتيب كتاب العين ، ذلك الترتيب الصوتي ، في تصنيف المعاجم العربية ، لعدة قرون بعد الخليل بن أحمد فقد أثَّر في البارع لأبي على القالي وتهذيب اللغة للأزهري والمحكم لابن سدرة والمحيط لابن عياد إلى غير ذلك ممن تأثر بطريقة الخليل في العين .

(انظر : فصول في فقه العربية ص٢٦٧-٢٧٠)

ومنها ما اتبع الترتيب على حروف الهجاء جاعلاً الأصل الأخير باباً ثم الأصل الأول فصلاً مع ما يليه كالقاموس المحيط للفيروز ابادي ولسان العرب لابن منظور والصحاح



للجوهري وقد عُرفت هذه المدرسة بمدرسة القافية في التأليف المعجمي عند العرب . وقد مزج بعض المؤلفين بين نظام القافية وشيء من نظام العين وشيء جديد هو نظام الأبنية على ما نجده في معجم ديوان الأدب في بيان لغة العرب للفارابي .

(انظر : فصول في فقه العربية ص٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥)

ومنها ما جعل الأصل الأول باباً والأصل الثاني فصلاً مع ما يثلثهما كأساس البلاغة للزمخشري والمصباح المنير للفيومي ومختار الصحاح للرازي .

(انظر : فصول في فقه العربية ص٢٢٩ ، ٢٣٠)

ولقد حظيت المكتبة العربية بثروة هائلة عرضت لتفسير النصوص وشروحها ، مما يمثِّل ثروة دلالية لا يُستهانُ بها ، تعكس اهتمام أهل العربية بتقديم نصوصها ، من ذلك تلك التفاسير التي عرضت لغريب القرآن كتأويل مشكل القرآن لابن قتيبة وغريب الحديث كالفائق في غريب الحديث للزمخشري أما دواوين الشعر فقد حظيت بجهد كبير كشرح ديوان المتنبي لأبي البقاء العكبري إضافة إلى شروح المختارات الشعرية كالمفضليات وشروح ديوان الحماسة .

نعم إن الناظر في معاجم العربية يشعر أنها ينقصها أحياناً شيء من الترتيب الدقيق والعرض لتاريخ تطور دلالة اللفظ ، على نحو ما نجده في بعض معاجم اللغات الأوروبية .

والأمل معقود في أن تتضافر الجهود لإكمال إخراج المعجم الكبير الذي بدأه مجمع اللغة العربية بالقاهرة ليسدَّ هذه الثغرة ، ويفتح أمام الباحثين الباب لرؤية تاريخية لتطور معنى اللفظ ودلالته .

لقد كان للقرآن الكريم أكبر الأثر في نشوء هذا اللون من التأليف ، فقد مثَّل صنيع ابن عباس النواة الأولى لنشأة التأليف المعجمي وهو يُفَسِّر غريب القرآن مستعيناً على ذلك بالشعر ، فهو ديوان العرب كما كان يطلق عليه .

(انظر : فصول في فقه العربية ص١٠٩ـ١١١)

والجانب الدلالي في اللغة العربية يتميَّز عن غيره في اللغات الأخرى بشيء من الاستقرار . ولا ينفي ذلك وقوع شيء من التطور والتغير في دلالة ألفاظها ، لكن علماء العربية وقفوا لذلك منبهين على ما يقع من تطور دلالي . يشهد لذلك ما جاء من هذا الباب في كتب لحن العامة والخاصة ولكن التغير الدلالي مع كل ذلك يقع في بعض جوانبه في مجال

المسموح به في العربية . فالمعاني مطروحة أمام الشعراء والأدباء والكتاب يبدعون فيها أيما إبداع ، ولم يعبهم على ذلك أحدٌ من علماء اللغة أو البلاغة العربية ، إلا مَنْ أقدم على استعارة فاحشة أو مجاز مُوْغلٍ في الغرابة أو كناية بعيدة عن المألوف . بل إن علماء العربية كانوا يُعجبون بإبداعات المولَدين ، كما أُعجب ابن جني بقول المتنبي فيما ساقه على دلالة لسان الحال في قوله :

(انظر : دراسات وتعليقات في اللغة ص٢١٤ ، ٢١٥ والبيت في الخصائص ج١/ ٢٤)

لو تعقلُ الشجر التي قابلتها مَدّتْ مُحييةً إليك الأغصنا

إضافة إلى ما سبق نجد أن ارتباط اللغة العربية بالقرآن الكريم وقراءاته والحديث الشريف ورواياته قد ساهم إلى حد كبير في استقرار الأنظمة اللغوية للعربية الفصحى ، فأتاح لها نقلاً شفوياً عن رسول الله عن صحابته الكرام عن التابعين وتابعيهم بإحسان إلى يومنا هذا ، وهو ظرف لم يتوفَّر للغة أخرى على وجه الأرض .

هذا الظرف هو الذي يجعلنا لا نقيس العربية الفصحى بما يحدث في غيرها من اللغات الحية المعاصرة ، فإن أقصى عمر هذه اللغات لا يتعدَّى قرنين من الزمان ، فهي دائمة التطور والتغير وعرضة للتفاعل مع اللغات المجاورة ، تؤثر فيها وتتأثر بها دون حرج لأنها لم ترتبط في فترة من فترات حياتها بكتاب مقدس كما وقع ذلك للعربية الفصحى .

(انظر : دراسات وتعليقات في اللغة ص٢٠٨ ، ٢٠٩) .

ثانياً : أنَّ اللغة العربية تمتلك من وسائل تجديد نفسها ما يُرشِّحُها لأن تكون من أهم عوامل الوحدة الثقافية بين العرب :

إن العربية تملك من الوسائل ما يمكِّنها من تجديد نفسها ويجعلها قادرة على الوفاء بما يُطْلب منها تعبيراً عن الإنسان والكون وما يتوصَّل إليه البشر من مستحدثات وعلوم كونية . وتتمثل أهم تلك الوسائل فيما يلي :

١) الاشتقاق:

عرَّفه الأستاذ عبد الله أمين بأنه " أخذ كلمة من كلمة أو أكثر مع تناسب بين المأخوذ والمأخوذ منه في اللفظ والمعنى جميعاً . *(الاشتقاق ، عبد الله أمين ص١)*

وأهم صور الاشتقاق التي تمثِّل صورة من صور قدرة هذه اللغة على تفريغ المعاني وتلوينها " الاشتقاق الصرفي " أو الاشتقاق الصغير ، كما يحلو لبعضهم أنْ يُسميه .

(انظر : الأبنية الصرفية في ديوان الشاعر إسماعيل صبري باشا ص١٢٥ ، ١٢٦)

ويعنون به : أخذ صيغة من أخرى مع اتفاقهما معنى ومادة أصلية وهيئة تركيب لها ، ليُدَلَّ بالثانية على معنى الأصل بزيادة مفيدة لأجلها اختلفا حروفاً أو هيئة كضارب من ضرب وحَذِرٍ من حَذَرَ . *(المزهر ج١/٣٤٦)*

وهذا النوع من الاشتقاق يُمكِّن صاحبه من تلوين المعاني والتعبير عنها بصيغة اشتقاقية تواتر عن العرب تأديتها هذا المعنى . ذلك من " ضَرَبَ " أن تأتي بصيغ المضارع والأمر : يضرب واضرب ، واسم الفاعل ضارب ، واسم المفعول : مضروب ، وصيغة المبالغة على نحو ضرَّاب ومضراب وضَرُوْب ، واسم الزمان والمكان والمصدر الميمي . ولك أن تزيد في الفعل وأن تجعله مبنياً للمعلوم أو للمجهول ، إلى غير ذلك من صور الاشتقاق الصرفي ، ووسائل تلوين المعنى طبقاً لتلك الصور .

٢) النحت:

يسميه بعض علماء اللغة العربية بالاشتقاق " الكُبار " وهو " أخذ كلمة من كلمتين أو أكثر مع المناسبة بين المأخوذ والمأخوذ منه في اللفظ والمعنى معاً ، بأن تعمد إلى كلمتين أو أكثر فتسقط من كل منها أو من بعضها حرفاً أو أكثر ، وتضم ما بقي من أحرف كل كلمة إلى الأخرى ، وتؤلِّف منها جميعاً كلمة واحدة ، فيها بعضُ أحرف الكلمتين أو الأكثر وما تدلان عليه من معان " .

انظر : الأبنية الصرفيّة ص١٣٢ والتعريف المذكور من كتاب الاشتقاق للأستاذ عبد الله أمين ص٣٩١ ، وانظر تعريفه كذلك في : فصول في فقه العربية ص٣٠١ والاشتقاق د. فؤاد حنا ترزي ص١٧ ومعجم مقاييس اللغة ١/ ٣٢٨ ، ٣٢٩ والصاحبي ص٤٦١ وفقه اللغة د. وافي ص١٨٦ ومن أسرار اللغة د. أنيس ص٨٦ واللغة والنحو بين القديم والحديث ص٢٥٧)

والنحت بأقسامه الأربعة يُمثِّل صورة من صور قدرة اللغة العربية على الثراء اللفظي بتوليد الألفاظ وتركيبها يستوي في ذلك أن يكون النحت فعلياً أو اسمياً أو وصفياً أو نسبياً .

انظر في أقسام النحت : فصول في فقه العربية ص٣٠٢ والاشتقاق د. فؤاد حنا ص٣٥٨ والاشتقاق التعريب ص١٣ ، ١٤ ، وانظر الأمثلة التي تردُ بعدُ في : المزهر ١/ ٤٨٢ – ٤٨٥ والأبنية الصرفية في ديوان الشاعر إسماعيل صبري باشا ص١٣٢ ـ ١٣٣)

فأما النحت الفعلي فيكون بأن تنحت من الجملة فعلاً يدلُّ عليها ويحدِّد مضمونها كقولك : بسمل الرجل ، أي قال : بسم الله الرحمن الرحيم ، ودمعز الرجل ، أي قال : أدام الله عزَّك .

وأمّا النحت الاسمي فيكون بأن تنحت من كلمتين اسماً نحو " جُلمود " من " جمد " و" جلد " .

والنحت الوصفي يكون بأن تنحت من كلمتين كلمةً واحدة للدلالة على صفة بمعناها أو أشدّ منه ، تقول : هذا رجلٌ ضِبَطْرٌ أي : شديد ، من الضبط والصبر . وتقول : هذه امرأةٌ صَهْصَلَق ، أي : عجوز صخّابَة من الصَّهيل والصَّلْق .

وأما النحت النسبي فهو ما يُنحت نسبة إلى علمين ، نحو : رجل طبرخزي نسبة إلى طبرستان وخوارزم ، وعبقسي ، نسبة إلى عبد القيس ، ودرعمي ، نسبة إلى دار العلوم .

والنحت إن أُحسن استعماله يُمكن أن يُثري اللغة ويزيد في ألفاظها وذلك " حين تدعو الحاجة المُلحَّةُ إليه ، ولا سيما حين يجري على نسق من الأمثلة القديمة ، فلا بأس من أن يُقال : درعميّ ، نسبة إلى دار العلوم ، ولا بأس من أن يُقال : أنفمي للصوت الذي يتخذ مجراه من الأنف والفم معاً " . *(من أسرار اللغة ص٩١ ، وانظر الأبنية الصرفية ص١٣٣)*

ولا شكَّ أن النحت يرفع الحرج كثيراً عن اللغة العربية في حاضرها ، إذ إن الصلة المحتومة بالعلوم الحديثة تُوجب علينا إذا أردنا أن نُحافظ على لغتنا أن نجد حلاً للألفاظ والاصطلاحات العلمية التي كثرت إلى حد جعل النحت واحداً من حلولها في هذه الأيام .
فقد " رأى رجال الطب والصيدلة والعلوم الكيماوية والحيوانية والنباتية وغيرها أنَّ إباحته - أي إباحة النحت - وسيلة من خير الوسائل التي تساعدهم عند ترجمة المصطلحات التي يغلب عليها عند الفرنجة التركيب من كلمتين ، متمازجتين مختصرتين ، أو أكثر على طريقة تُشبه النحت العربي . فلو تُرجمت الكلمتان أو الكلمات ترجمة حرفية بغير اختصار لنشأ عن ذلك اصطلاح عربي طويل ، مركب من كلمتين ثقيلتين أو أكثر . أما تناولها بالترجمة أولاً ثم بالنحت على الطريقة العربية السالفة - فإنه يُوصِّل إلى اصطلاح عربي خفيف مقبول " . *(اللغة والنحو بين القديم والحديث ص٢٥٩)*

وقد سَبَقَ ابن فارس عصره وهو السلفي المتشدِّد للعربية حين جعل النحت مذهباً من مذاهب العرب في كلامها لجنس من الاختصار ، فأباحه وتوسَّع فيه إلى حد كبير .
(انظر : الصاحب ص٤٦١ ومعجم مقاييس اللغةً ١/ ٣٢٨ ، ٣٢٩)



٢) التعريب:

إذا كُنَّا قد رأينا أنَّ الاشتقاق والنحت من وسائل العربية لتنمية الثروة اللفظية ، فإن التعريب يُعَدُّ وسيلة فاعلة لتحقيق هذا الهدف كذلك ، ولحل مشكلة ألفاظ العلوم ومستحدثات الحضارة .

لقد احتكَّت العربية بغيرها من لغات الشعوب المجاورة فأثَّرتْ وتأثَّرت . وكان من ذلك أن انتقل إلى العربية الكثير من الألفاظ الوافدة من اللغات الأخرى . ولقد كانت عبقرية هذه اللغة تكمن في هضم هذه الألفاظ واستيعابها وقولبتها طبقاً للأبنية العربية ، بإجراء شيء من التغيير والتعديل في أصواتها أو بنيتها أو فيهما معاً لتصبح على صورة الألفاظ العربية أو على أقرب صورة لها ، والتعريب على ذلك يعني أن هذه " الكلمات المستعارة في العربية لم تبق على حالها تماماً كما كانت في لغاتها ، وإنَّما حدث فيها أنْ طوَّعَها العربُ لمنهج لغتهم في أصواتها وبنيتها وما شاكل ذلك " .

(فصول في فقه العربية ص٣٥٩)

ولقد وقف سلف هذه الأمة من التعريب مواقف متباينة *(انظر : فصول في فقه العربية ص ٣٦٠ ، ٣٦١)* : منهم من قال به كعبد الله بن عبَّاس ومجاهد وعكرمة ، فقد رووا أن في القرآن أحرفاً من غير العربية ، من نحو : اليّم والطور وأباريق وإستبرق وغير ذلك .

ومنهم من أنكر وقوع المعرب في كتاب الله كأبي عبيدة معمر بن المثنى ؛ فقد ذهب إلى أنَّ من قال بأنَّ في القران لساناً سوى العربية فقد أعظم على الله القول .

ومنهم من وازن بين القولين السابقين كأبي عبيد القاسم بن سلام ، فقد رأى صواب قول كل من الرأيين " ذلك أنَّ هذه الحروف بغير لسان العرب في الأصل ، فقال أولئك على الأصل ، ثم لفظت به العرب بألسنتها ، فعربَّتْه ، فصار عربياً بتعريبها إياه ، فهي عربية في الحال ، أعجمية الأصل " . *(فصول في فقه العربية ص٣٦٠ ، ٣٦١)*

والناظر في كتاب " المعرَّب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم " للجواليقي يستطيع أنْ يُدرك قدرة اللغة العربية على الاستفادة من اللغات الأخرى بالاقتراض من ألفاظها ومحاولة سَبْك وصياغة تلك الألفاظ في قوالب عربية بشيء من التغيير ، تُجريه على تلك الألفاظ ، وتلك قدرة كامنة في العربية تَعِدُ بالوفاء - إلى جانب قدراتها الأخرى - بمتطلبات العصر وما تُمليه مستحدثاته .

ولقد كان للعرب في الوقت الحاضر جهوداً ترمي إلى تيسير التعريب وتقنينه ، حتى يمكن استثماره في زيادة الثروة اللغوية كضرورة علمية وعملية تواجهها اللغة العربية في مواجهة ألفاظ العلوم ومستحدثات الحضارة باحتكاكنا بالغرب وحضارته وعلومه ، من ذلك : *(انظر : العربية لغة العلوم والتقنية ص٣٣٠ - ٣٣٣)* انعقاد ندوة توحيد منهجيات وضع المصطلحات العلمية الجديدة بمدينة الرباط بإشراف مكتب تنسيق التعريب في الوطن العربي ، في فبراير عام ١٩٨٠م . وقد أقرَّتْ هذه الندوة مجموعة من المبادئ والاقتراحات ، تهدف إلى بناء منهجية موحدة بين العرب لعملية التعريب ، وتُعَدُّ بداية جادة لإيجاد موقف موحد من تلك القضية .

ولقد خطت المجامع العربية في القاهرة وبغداد ودمشق خطوات طيبة على هذا الطريق ، لكن تلك الجهود تحتاج إلى عمل مبكر قبل أنْ يشيع المصطلح أو الاسم على ألسنة الناس ، أما جهود هذه المجامع - مع أهميتها - فإنها عندما تأتي بعد شيوع اللفظ الأجنبي على ألسنة الناس ، فإنها لا تلقى قبولاً ولا تجد رواجاً في استعمالها في دنيا الناس .
(انظر : فصول في فقه العربية ص٣٦٨)

٤) تدخيل الألفاظ : *(انظر : العربية لغة العلوم والتقنية ص٣٣٥ وما بعدها)*

لاحظ أستاذنا أ . د . عبد الصبور شاهين أن بعض الألفاظ الواردة إلينا تقبلها اللغة العربية دون أنْ تمسَّها بأدنى تغيير ، وقد رمز لها المعجم الوسيط بالرمز (د) . وقد لاحظ أن المعجم بذلك قد ضمَّ عدداً كبيراً من الألفاظ لمسميات لا علاقة لها بجذور العربية ، فوضع أستاذنا مصطلح " تدخيل الألفاظ " لها ، على هذا النحو ، في مقابل " تعريب الألفاظ " .

وقد ضرب لتلك الألفاظ الدخيلة مجموعة كبيرة من الأمثلة عدَّها مواليد غريبة في أرض غريبة وضع لها مكتشفوها أسماءَها ، والأسماء لا تتغيَّر من لغة إلى لغة من ذلك :

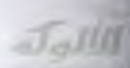
اردواز : حجر صلصال .

ارغول : مزمار ذو قصبتين .

أطلس : مجموعة مصورات جغرافية .

الماس : حجر كريم ، هو أنفس الأحجار .





بنزين : أحد مشتقات البترول .

بنك : مصرف .

تلفون : الهاتف .

فيروس : كائنات دقيقة لا تُرى بالمجهر العادي تحدث بعض الأمراض .

ومع أن أستاذنا أ. د. عبد الصبور شاهين هو صاحب مصطلح " تدخيل الألفاظ " وقد بيّن أن الدَّخيل قد كثُر لاحتكاكنا بالحضارة الحديثة وثمارها ، لكنه يرى أنَّ التدخيل وإن كان أيسر الوسائل لاستعمال اللفظ الجديد ، لكنه أشبه بالعملة الرديئة التي تطرد العملة الجيدة . والعملة الجيدة هنا هي المقابل الأصيل عند الترجمة ، أو التعريب عند تعذُّر الترجمة ، واستسهال هذا الطريق يُعَدُّ آفة يجب التصدي لها ومواجهتها حتى نتلافى آثارها المخرِّبة في كيان اللغة العربية . *(انظر : العربية لغة العلوم والتقنية ص٣٣٩)*

٥) الجذور اللغوية المهملة ثروة العربية المدّخرة:

أثار الخليل - رحمه الله - الأذهان ونبَّهها إلى أنَّ هناك جذوراً لغوية مستعملة وأخرى مهملة لم يستعملها العرب ، عندما أخذ يقلب المواد اللغوية كطريقة تساعده على العرض لمفردات اللغة في معجم العين .

(انظر : معجم كتاب العين ص٢٨ وكتاب العين ص٤٥ ، ٤٦ وفصول في فقه العربية ص٢٦٨ ، ٢٦٩)

فالثنائي له صورتان مثل : ع ق / ق ع . وأما الثلاثي ففيه ستة تقاليب على نحو ما نجد في "رجع" : ر ج ع / ر ع ج / ع ج ر / ع ر ج / ج ع ر / ج ر ع

وللرباعي أربعة وعشرون تقليباً ، وللخماسي مائة وعشرون تقليباً ، ومن الملاحظ أن الخليل يُنَبِّه على المستعمل من تقاليب الجذر الذي يعرض له ، ومعنى ذلك أن ما لم يذكره من التقاليب الممكنة لهذا الجذر فليس بمستعمل ، وهو قَدْرٌ لا يُسْتهانُ به يُمثِّل صورة من صور قدرة هذه اللغة على ابتداع الألفاظ وابتكارها .

وإنه لمن الممكن اليوم أن تستثمر هذه الجذور المهملة في تعليق بعض المعاني التي تجدُّ علينا على تلك الجذور ، هذه المعاني التي تجدُّ نتيجة التقدم العلمي المتواصل الذي يرمينا كل يوم بكمٍّ جديد من الأسماء والمعاني . وذلك إن أُحسن استثمارُه يمثِّل صورة من صور

قدرة هذه اللغة على استيعاب مستحدثات العصر والاستجابة لمتطلباته بتقديم جذور لغوية تُتَّخذُ كمادة أولية لبناء ما نحتاجُ إليه من مفردات .

٦) الترجمة :

تمثِّل قدرة اللغة العربية على استيعاب المعاني التي تؤديها نصوص لغات أخرى بنقلها إلى العربية - تمثِّل صورة من صور قدرة هذه اللغة على مجاراة الظروف والأحوال التي تمرُّ بها العربية في احتكاكها بغيرها من اللغات .

ولقد امتحنت العربية في هذا الباب مرتين ، أولاهما يوم أن انفتح العرب على حضارة الفرس والروم ، وتمَّ للعربية النجاح في تلك المرحلة فتُرجم إليها ما احتاجه العرب من علوم اللغات الأخرى ثم ما لبثت أن هضمت هذه المترجمات وأحسنت تمثلها وأضافت إليها من قرائح أبنائها وعلمائها ما جعلها معبراً حضارياً إلى أوروبا لما أنتجته الحضارة الإسلامية على مدى تاريخها الطويل .

وهي اليوم تُمتَحَن مرة أخرى بعد أن تقدم غيرنا وتقهقرنا فصارت إليهم ريادة العلوم ، وهي بإذن الله - قادرة على النجاح كالمرة الأولى ، يشهد للعربية على هذا النجاح قدرتها على استيعاب كثير من العلوم والفنون التي ترجم إلى العربية بعض مصنفات الأورُبيين فيها .

وهذه قضية لا تخصُّ العرب وحدهم ولكنها تخصُّ قطاعاً كبيراً من البشر ، إن الترجمة إلى اللغة القومية كانت سبيل الصين واليابان إلى نهضة علمية حديثة ، لأنهم صدقوا فيما شرعوا فهل لنا فيهم أسوةٌ اليوم كما كان لنا في سلفنا الصالح بالأمس البعيد عندما ترجموا علوم الأوائل وهضموها وأحسنوا تمثلها ؟!

ثالثاً : أن العربية الفصحى تؤدي الوظائف التي تؤديها أية لغة في حياة أي تجمع بشري يتكلم بها :

عرَّف ابن جني اللغة بأنها " أصوات يُعَبِّر بها كل قوم عن أغراضهم " (الخصائص ١/ ٣٣) وتعريف ابن جني هذا يشير إلى أن اللغة بنية صوتية ، تتنوع بحسب المجتمعات والأقوام ولها وظائف تؤديها في حياة المتكلمين بها ، وهو عين ما تركز عليه التعريفات الحديثة للغة . ويهمنا هنا أنَّ العربية بوصفها لغة فإنها تؤدي في حياة المتحدثين بها نفس الوظائف التي تؤديها أية لغة في حياة أي تجمع بشري يتكلم بتلك اللغة . وقد أثبتتْ العربية

قدرتها على الوفاء بهذه الوظائف على مدى ستة عشر قرناً على الأقل من الزمان وما زالت قادرة على الوفاء بها .

وتتلخص هذه الوظائف فيما يلي: *(انظر : اللغة العربية بين الواقع المرصود والأمل المنشود ص٣٩ـ٤٠)*

١) **أول هذه الوظائف** : أن اللغة وسيلة التواصل والتفاهم والإبلاغ بين أفراد المجتمع الذي يتكلم بها فاللغة وسيلة الفهم والإفهام والتواصل بين أفراد المجتمع الذين يتكلمونها . والعربية الفصحى ـ عند صدق النية ـ قادرة على القيام بهذه الوظيفة على أحسن وجه . خذ مثلاً على ذلك قدرة العامة وأنصاف المتعلمين والمتعلمين على فهم نص من نصوصها عمره الآن أكثر من ألف وأربعمائة عام هو القرآن فإنه عندما يُتلى يأخذ كلٌّ منه على قدر استعداده ، فإذا ما قارنت ذلك بنصّ لم يمضِ عليه أكثر من قرنين بكثير وليكن أدب شكسبير فإنه الآن في نظر الإنجليزي نصٌّ صعب معقد إنْ لم يكن غريباً غربة تامة وقد صدق الله إذ قال : ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝﴾ (القمر : ١٧) .

٢) **ثاني هذه الوظائف** : أن اللغة وسيلة الإنسان في التفكير ، فالصلة بين اللغة والتفكير صلة قوية لا يمكن الفصل بينهما حتى إنه لا يُتصور أن يكون هناك تفكير بغير اللغة .
(انظر : اللغة لفندريس ص١١ ومن أسس علم اللغة د. حبلص ص٦٤)

والعربية لا تقلُّ في ذلك عن أشهر لغات الدنيا ، فقد كانت وما تزال وسيلة التفكير عند علماء هذه الأمة وعامتها في عصورها الزاهرة تلك العصور التي خلّفت للبشرية ما لا حصر له من المؤلفات في شتى فروع المعرفة والعلم ، مثّلت الأساس الذي بني عليه الغرب حضارتهم الراهنة .

٣) **ثالث هذه الوظائف** : أن اللغة من أهم وسائل البشر في تسجيل المعارف الإنسانية يستوي في ذلك ما كان متصلاً بالإنسان ذاته وما كان متصلاً بالكون .

ولقد ضربت العربية مثلاً رائعاً في قدرتها على استيعاب العلوم عندما احتك العرب بالحضارات المجاورة لهم في الشرق والغرب ، وأثبتت قدرتها على أن تكون لغة علمية استوعبت ما نُقل إليها وما أنتجته قرائح العلماء في ظل الحضارة الإسلامية في الطب والفلك والرياضيات والحساب والكيمياء والنَّبات والأدوية والفيزياء كما كانت وسيلة العرب كذلك في تسجيل التاريخ والأدب وعلوم الدين .

ولقد أثبتتْ قدرتها اليوم كذلك على أن تكون لغة العلم ، فبها يتم التدريس والتأليف لكثير من العلوم الكونية في جامعات سوريا والعراق ومصر ، وهو مؤشر جد خطير يثبت قدرة هذه اللغة على الوفاء بمتطلبات العصر .

٤) رابع هذه الوظائف أنَّ اللغة وسيلة من وسائل تنمية المهارات الأدبية واللغوية عند الموهوبين من المتحدثين بها . والناظر في النتاج الأدبي واللغوي لهذه اللغة يجد كماً لا حصر له من هذا النتاج لم يتوفَّر لأية لغة على وجه الأرض . وما تزال إلى يومنا هذا قادرة على أن تكون وعاء الموهوبين ووسيلتهم إلى نتاج أدبي ولغوي متنوع كما هو الواقع في هذه الأيام .

٥) خامس هذه الوظائف أن اللغة تؤدي إلى ضرب من التوافق الاجتماعي بما تمدُّ به المتحدث من تعابير جاهزة لكل مناسبة . فلكل مقام مقال كما يقولون ، فللعزاء ومواقف الشدة تعابير تناسبها من نحو : البقاء لله ، ولا بأس عليك . ولمواقف الفرح والسرور تعابير تغايُرها وتناسب المقام من نحو قولهم حج مبرور لمن قدم من الحج ، وقولهم : في العُرْس : العاقبة عندكم أو بارك الله لكما وبارك عليكما وجمع بينكما في خير ، إلى غير ذلك من التعابير التي تمكن الإنسان من نوع من التوافق الاجتماعي والتآلف بينه وبين أفراد مجتمعه .

٦) سادس هذه الوظائف : أنَّ اللغة تُعَدُّ وسيلة من وسائل إطلاعنا على النسيج النفسي والعقلي للمتكلم ، فاللغة نسيج ينتجه المتحدِّث بها ، ومن خلال نسيجه ذلك يمكننا الوقوف على جوانب نفسية وعقلية لذلك المتكلم تنعكس على استعماله للغة في أصواتها وأبنيتها وتراكيبها ودلالات مفرداتها .

٧) سابع هذه الوظائف : أن اللغة العربية وسيلة من وسائل الاستفادة من التراث الضخم الذي سُجِّل بها في ظل الحضارة الإسلامية كما أنها كذلك هي المدخل الطبيعي لفهم منهج الإسلام فهماً صحيحاً بفهم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وما دار حول هذين الأصلين من علوم .

وهناك معادلة ينبغي التنبيه عليها إذ كلما ارتقى مستوى المتحدث باللغة كان فهمه أقرب إلى الصواب منه إلى الخطأ وكلما تدنَّى مستواه في لغته كان فهمه أقرب إلى الخطأ منه إلى الصواب . و إذا كانت العربية هي المدخل الطبيعي لفهم منهج الله تعالى للبشرية ولفهم

ذلك النتاج الضخم الذي كُتب بها فإنَّ الواجب علينا أن نُقبل عليها صوناً لها وتمكنا منها لتكون وسيلة طَيِّعة في أيدينا إلى فهم صائب مستقيم لنصوص العربية الفصحى ، وعلى رأسها كتاب الله وسنة رسوله ـ ﷺ ـ.

والسؤال الآن : ما موقف كل تكتل وتجمع بشري من لغته وما موقفنا نحن من ذلك؟

إن كل تجمع بشري ينظر إلى لغته على أنها جزء من ذاته ، ولذلك فهم يُولونها من أشكال الرعاية والعناية ما يكفل لها ولهم أنْ تقوم بوظائفها في حياتهم خير قيام . فاللغة في نظرهم تحقيق للذات الإنسانية ، ومن هنا فإنّ الواحد منهم لا يرضى بلغته بديلاً . ذلك موقف كل تجمع بشري تجاه لغته .

ونحن العرب لسنا أقلَّ بشرية من غيرنا فضلاً عن أن اللغة العربية الفصحى تقوم في حياتنا إضافة إلى ما سبق بيانُه من وظائفها ـ بدور خاص فهي وسيلتنا إلى الفهم الصحيح الصائب لمنهج الله ولما سُجِّل بهذه اللغة في ظل الحضارة الإسلامية على مدى أربعة عشر قرناً من الزمان ، إن لم يكن لمدى أطول من ذلك .

إن العربية الفصحى بهذه المثابة لغة قومية تلعب دوراً هاماً في توحيد العرب ومن هنا وجب الاهتمام بها والاعتزاز بها " فكل أمة تعتزُّ بلغتها ، وتريد لها الحياة ، . . إن العلاقة بين اللغة وبين اعتزاز الجماعة بقوميتها وتثبيت هذه القومية وإحيائها علاقة خطيرة الشأن حتى إنه لمن الممكن بَعثُ لغة طال موتها ، فإسرائيل في العصر الحاضر قد رأتْ أن من عوامل تجمع اليهود مختلفي الألسنة بعث اللغة العبرية " .

(اللغة والمجتمع ، رأي ومنهج د. محمود السعران ص٤٤ ، ٤٥ ، وانظر اللغة العربية والصحوة العلمية ص٩٩ – ١٠٠)

لقد تمَّ بعث العبرية من مرقدها وأخرجوها من قبرها لتكون لغة الحياة والعلم والتعليم، وما فعلوا ذلك إلا لشعورهم بخطورة اللغة كعامل من عوامل الوحدة الثقافية بل والوحدة الشاملة بين طوائف اليهود الذين قدموا من العالم أجمع بلغات مختلفة إلى وطن مغتصب أصحابه الفلسطينيون والعربُ والمسلمون .

وليس بعثُ اللغة العبرية إلى الحياة من جديد عملاً مقصوراً على اليهود أو سمةً لهم ، بل إنَّ هناك شعوباً كثيرة لها تجاربُ في الاعتداد بلغتها وجعلها لغة الحياة والعلم في العصر الحديث شعوراً منهم بأن اللغة عنوان الهوية وعامل مهم في ترابط أبناء الشعب الواحد ويكفي هنا أن نشير إلى تجارب بعض الشعوب في هذا الصدد *(انظر : اللغة العربية والصحوة*

العلمية الحديثة ص٩٧ ـ ٩٩) كاليابان فقد استفادوا أولاً من النتاج العلمي الحديث في أوروبا وأمريكا ثم جعلوا اللغة اليابانية هي اللغة المستعملة في شتى العلوم ومختلف المجالات . ولا يقلُّ عن ذلك ما فعله الصينيون رغم صعوبة لغتهم ، فهي تحتاج إلى إتقان أكثر من ثلاثة آلاف مقطع صوتي ، حتى يتعامل الواحد بها بحرية واقتدار ، فحوَّلوها مع هذه الصعوبة إلى لغة العلوم والتقنية . وإنه من هذا الباب كذلك ما فعلته فرنسا يوم أنْ كانت العلوم فيها تُدَرَّس بالإنجليزية فبقرار " فرنسة العلوم " صارت الفرنسية لغة العلم والحياة بل ولغة عالمية لها تواجُدها خارج حدود فرنسا ، وما تجربة فيتنام من ذلك ببعيد . لقد استطاعوا أن يحوِّلوا اللغة الفيتنامية إلى لغة للعلوم بعد أن كانت تدرس بالفرنسية في بلادهم .

فهل آن لنا أن نُدرك ما أدركه غيرُنا فأنزلوا لغتهم المنزلة اللائقة بها ، فنستمسك بها رباطاً يجمع العرب من الخليج إلى المحيط وقد صدق أ . د . عوض القوزي إذْ عبَّر عن ذلك فقال : " إن اللغة هي أقوى مُوَحِّد بين الأمم ، كما هي أوضح الظواهر الدالة على هوية الفرد والأمة ، فالشعوب الناطقة بالعربية ، أو الأخرى الناطقة بالصينية أو الهندية أو غيرها من اللغات ، إنما اكتسبتْ هويتها الخاصة لما لها من لغات حملتْ آدابها وتراثها وتاريخها ورسالتها الكونية . فهل أدرك العرب أن عربيتهم هي أسُّ هويتهم ؟ " *(من ملخص بحث " اللغة والهوية " الكتاب بدون ترقيم د. عوض بن حمد القوزي)* وركيزة وحدتهم .

مقترحات لعلاج مشكلة تدهور العربية بين أبنائها:

لا شك أن المتأمل لوضع العربية الآن بين أبنائها يجد هناك تدهوراً واضحاً قد أصابها ، وليس ذلك لعيب فيها وإنّما العيب فيمن لا يجيد استعمال هذه الأداة التي تؤدي الوظائف السابقة باقتدار لمن يتكلمها . ويمكن تحسين هذا الوضع بمراعاة ما يلي من الاقتراحات التي إن رُوعيتْ بِصدق عاد للعربية مكانتها بين اللغات وفي نفوس أبنائها وأهم تلك الاقتراحات ما يلي :

١ . القراءة الواعية للنصوص الجيدة ، مما يساعد على تكوين سليقة لغوية تُجْري اللغة العربية الفصحى عذبة على الألسنة ، تعويضاً عن السماع الذي يُعَدُّ المدخل الطبيعي لتكوين هذه السليقة . *(انظر : دراسات وتعليقات في اللغة ص٢٣١ ، ٢٣٦)*

٢ . حفظ قَدْر من النصوص الجيدة من كلام العرب شعراً ونثراً ومن القرآن الكريم وحديث الرسول ﷺ مما يساعد على تكوين ملكة لغوية تستطيع أن تحاكي هذه النصوص وتنسج

على منوالها . *(انظر : دراسات وتعليقات في اللغة ص ٢٣٦ ، وتجهيز اللغة العربية ص٧١)*
ولا بأس بأن يدفع الناس بأبنائهم إلى الكتاتيب التي تتولى تحفيظهم القرآن الكريم .

٣ . إصلاح وسائل الإعلام بأشكالها المختلفة ، بأن تكون العربية الفصحى هي اللغة السائدة فيها مما يُمكن من سماع قَدْر يُعين على ترسيخ أنظمة اللغة العربية الفصحى في ذهن السامع ، ليحاكي بعد ذلك ناسجاً على منوال ما سمع .
(انظر : دراسات وتعليقات في اللغة ص٢٣٨ ، ٢٣٨ ، وتجهيز اللغة العربية ص٧٠)

٤ . الاهتمام بالتعليم الابتدائي باعتباره حجر الأساس في العملية التعليمية ، بالأستاذ والطالب والمنهج ، على حد سواء . وتشجيع المعلم على استخدام العربية الفصحى المبسطة مما يُمثِّل نقطة انطلاق لهؤلاء الصغار إلى حُبِّ العربية الفصحى ومحاكاتها .
(انظر : دراسات وتعليقات في اللغة ص ٢٢٩ـ ٢٣٠ ، وتجهيز اللغة العربية ص٧٠)

٥ . تأليف بعثات وجماعات لتعليم اللغة العربية الفصحى وحدها دون ربط هذا التعليم بالبلاغ الديني ، مما يعمل على تهيئة معرفة اللغة العربية وإتقانها لأي إنسان يطلب المزيد من الثقافة *(انظر : الشيخ الغزالي كما عرفته ص٢٧٥)* العربية .

٦ . الجد في محاربة الدعوة إلى العاميات ـ داخل الوطن العربي ـ ومنع البرامج التي تقدم بالعامية ، ومنع الأزجال والمواويل والشعر الفوضوي الذي يسمى بالشعر المرسل ، فكل ذلك إنما يكون على حساب العربية الفصحى في هذه المجالات ، وإفساح الطريق أمام الفصحى في كل ذلك . *(انظر : الشيخ الغزالي كما عرفته ص٢٧٥)*

٧ . إحياء الأدب العربي الخالص وتقريبه من طبيعة العصر ، أي تجريده من التكلف وافتعال المحسنات اللفظية ، والعمل على تشجيع الموهوبين من أبناء العربية بشتى الوسائل . *(انظر : الشيخ الغزالي كما عرفته ص٢٧٥)*

٨ . لا بد من قيام المجامع اللغوية في بلاد العرب بدورها المنوط بها على خير وجه ومنه العمل على نشر ألفاظ الحضارة قبل شيوعها غير معربة على ألسنة الناس وتيسير جعل العربية لغة للعلوم الحديثة . *(انظر : الشيخ الغزالي كما عرفته ص٢٧٥)*

٩ . عمل حملات توعية بأهمية معرفة العربية الفصحى في حياتنا قراءة وكتابة وحديثا باعتبارها جزءاً من ذواتنا ، خاصة بالنسبة للطالب والمدرس في المراحل التعليمية المختلفة مما يهيئ الجوَّ للطالب والأستاذ لتقبل العربية الفصحى بوصفها رمز هويتنا .
(انظر : في مخاطر فقدان العلاقة العضوية د. الزوادي ص١٩)

١٠ . أن تتخذ الجامعات والمعاهد والمدارس قرارات رسمية تبلغ إلى كل أعضاء هيئة التدريس الذين يدرسون بالعربية ، بضرورة استعمال العربية الفصحى في تدريسهم ، ورصد مكافآت رمزية أو مالية أو هما معاً لمن يظهر تفوقه في هذا الباب .
(انظر : مخاطر فقدان العلاقة العضوية د. الزوادي ص١٩ وانظر : تجهيز اللغة العربية ص٧٠)

١١ . تشجيع الطلاب والطالبات والتلاميذ على استعمال العربية الفصحى في الحوار والنقاش داخل قاعات الدرس ، مما يتيح لهم دُربة عملية ثمارها إحياء العربية الفصحى على ألسنتهم . *(انظر : مخاطر فقدان العلاقة العضوية د. الزوادي ص١٩)*

١٢ . إقحام اللغة العربية في مجالات التقنية الحديثة للإعلام والاتصال وذلك عن طريق إنشاء مواقع في شبكة الإنترنت ذات منفعة وقيمة ، لغتُها العربية الفصحى ، وقد بادرت بالفعل بعض المنظمات بهذا العمل .
(انظر : اللغة العربية بين قصور أنصارها ودهاء خصومها ص٢٥)

١٣ . تشجيع إقامة الملتقيات العلمية المتخصصة لمناقشة مشاكل العربية الفصحى ووضع الحلول لها وتوحيد الرؤى والمفاهيم .
(انظر : اللغة العربية بين قصور أنصارها ودهاء خصومها ص٢٥)

١٤ . العمل على تبسيط اللغة العربية لدارسيها وتيسير تعليم النحو باستخدام الإمكانيات الحديثة . *(انظر : تجهيز اللغة العربية ص٧٠)*

١٥ . العمل على استخدام اللغة العربية الفصحى المبسطة في برامج الأطفال والكتب الخاصة بهم ، بطريقة مشوقة حتى يألفها الطفل قبل دخول المدرسة وأثناء التعليم الابتدائي *(انظر : تجهيز اللغة العربية ص٧٠)* ولقد لمست أثَرَ هذه البرامج التي تتخذ من العربية الفصحى لغةً لها فإن الصغار يحاكونها دون أدنى معرفة بقواعد اللغة .

١٦ . ضرورة تفهيم الناشئة أن اللغة العربية هي مدخلنا الطبيعي إلى الاستفادة من التراث الحضاري المكتوب باللغة العربية ، كما أنها في الوقت ذاته مدخلنا الطبيعي إلى فهم منهج الله إلى البشر فهماً صحيحاً يعصمنا من الزلل ، إذ الفهم الصحيح هو المدخل إلى الاتباع الصحيح لمنهج الله تعالى .

١٧ . رصدُ راتب مُجْز لمدرس اللغة العربية مما يؤدي إلى جذب الموهوبين من أبناء العربية إلى التخصص في تدريسها وإتقان تعلمها ، مما يُريحه من عناء السعي وراء تحصيل



ضـروريات الحـياة من حصص الدروس خارج المدرسة وتحويلها إلى عمله الأساسي . هـذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى تعود له مكانته في نفوس أفراد مجتمعه ، مما يزيد من قدرته على القيام بوظيفته على خير وجه .



مراجع البحث

١ . القرآن الكريم ، كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

٢ . الأبنية الصرفية في ديوان الشاعر إسماعيل صبري باشا ، رسالة ماجيستير إعداد أحمد إبراهيم هندي ، كلية الآداب جامعة عين شمس عام ١٩٨٤م .

٣ . اتجاهات التفسير في مصر في العصر الحديث أ. د. عفت الشرقاوي القاهرة عام ١٩٧٢م .

٤ . الاشتقاق ، د. حنا ترزي - بيروت بلا تاريخ .

٥ . الاشتقاق ، عبد الله أمين طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٥٦م .

٦ . الاشتقاق والتعريب أ. عبد القادر المغربي - الطبعة الثانية القاهرة ١٩٤٧م .

٧ . الأصول طبعة الهيئة العامة للكتاب - د. تمام حسان - القاهرة ١٩٨٢م .

٨ . تجهيز اللغة العربية للتصدي لطوفان المعلومات والعولمة د. سلوى حماده ، بحث ضمن فعاليات ورشة التعليم والتدريب باللغة العربية في مجال الحاسبات ، المنعقدة في الجامعة الأمريكية بالقاهرة في الفترة من ٢-٣ يناير ٢٠٠٥م .

٩ . تصحيح التصحيف وتحرير التحريف للصفدي . تحقيق د. سيد الشرقاوي الطبعة الأولى - القاهرة ١٩٨٧م .

١٠ . تقويم اللسان لابن الجوزي . تحقيق د. عبد العزيز مطر الطبعة الثانية دار المعارف القاهرة - بلا تاريخ .

١١ . الحصانة الذاتية للعربية ضد أخطار العولمة د. محمد أحمد حماد بحث ضمن فعاليات المؤتمر السنوي العاشر لجمعية لسان العرب المنعقد بمقر الأمانة العامة لجامعة الدول العربية من ١٧-١٩ أكتوبر ٢٠٠٣م .

١٢ . الخصائص لابن جني المجلد الأول - تحقيق محمد علي النجار بيروت الطبعة الثانية بلا تاريخ .

١٣ . دراسات في فقه اللغة أ. د. صبحي الصالح الطبعة التاسعة بيروت عام ١٩٨١م .

١٤ . دراسات وتعليقات في اللغة أ. د. رمضان عبد التواب الطبعة الأولى بالقاهرة ـ ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م .

١٥ . الشيخ الغزالي كما عرفته ، رحلة نصف قرن . د. يوسف القرضاوي الطبعة الأولى دار الشروق ـ ٢٠٠٠م .

١٦ . صحيح مسلم بشرح النووي ، ج١ مكتبة أسامة الإسلامية بالقاهرة بلا تاريخ .

١٧ . العربية لغة العلوم والتقنية أ. د. عبد الصبور شاهين الطبعة الثانية ـ القاهرة ـ ١٩٨٦م .

١٨ . الفرق بالحركة بين المعاني المختلفة في العربية د. أحمد إبراهيم هندي . بحث منشور في مجلة علوم اللغة العدد ٢٣ (المجلد السادس ـ العدد الثالث) طبعة دار غريب القاهرة .

١٩ . فصول في فقه العربية أ. رمضان عبد التواب عبد التواب ـ الطبعة الثانية طبعة الخانجي القاهرة عام ١٩٨٠م .

٢٠ . فقه اللغة د. علي عبد الواحد وافي الطبعة الثانية . القاهرة بلا تاريخ .

٢١ . كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي ج١ ، تحقيق د. عبد الله درويش طبعة المجمع العلمي العراقي ـ بغداد ـ ١٩٦٧م/ ١٣٨٦هـ .

٢٢ . اللغة لفندريس . تعريب د. عبد الحميد الدواخلي ود. محمد القصَّاص القاهرة عام ١٩٥٠م .

٢٣ . اللغة العربية والصحوة العلمية د. كارم السيد غنيم . القاهرة عام ١٩٩٠م .

٢٤ . اللغة العربية بين الواقع المرصود والأمل المنشود . د. أحمد إبراهيم هندي ، بحث ضمن فعاليات ورشة التعليم والتدريب باللغة العربية في مجال الحاسبات . المنعقدة في الجامعة الأمريكية بالقاهرة في ٢ـ٣ يناير عام ٢٠٠٥م .

٢٥ . اللغة والمجتمع رأي ومنهج د. محمود السعران طبعة بنغازي ١٩٥٨م

٢٦ . اللغة والنحو بين القديم والحديث ، عباس حسن الطبعة الثانية ، طبعة دار المعارف القاهرة بلا تاريخ .



٢٧ . اللغـة والهوية د. عوض بن حمد القوزي بحث بالمؤتمر السنوي العاشر لجمعية لسان العرب عنوانه : اللغة العربية في عصر العولمة في الفترة ١٧ـ١٩ أكتوبر ٢٠٠٣م .

٢٨ . اللغة والمجتمع د. علي عبد الواحد وافي . طبعة الحلبي القاهرة ـ ١٩٥١م .

٢٩ . المزهـر في علـوم اللغـة للسيوطي ـ تحقيق محمد أبو الفضل وآخرين طبعة الحلبي ـ القاهرة بلا تاريخ .

٣٠ . مسند الـربيع بـن حبيب بـن عمر الأزدي البصري دار الحكمة بيروت ـ عمان ، الطبعة الأولى تحقيق محمد إدريس وآخر .

٣١ . معجـم كـتاب العـين للخلـيل بـن أحمـد تحقـيق د. مهدي المخزومي ود. إبراهيم السامرائي طبعة العراق ١٩٨٠م .

٣٢ . معجـم مقايـيس اللغـة لابـن فـارس تحقـيق أ. عبد السلام هارون الطبعة الثانية ـ القاهرة ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م .

٣٣ . المعرَّب للجواليقي أ. أحمد محمد شاكر . الطبعة الأولى القاهرة ١٩٤٢م .

٣٤ . من أسس علم اللغة د. محمد حبلص القاهرة . الطبعة الثانية عام ١٩٩٦م .

٣٥ . من أسرار اللغة أ. د. إبراهيم أنيس ـ الأنجلو المصرية ـ الطبعة الخامسة ١٩٧٥م .

